

الخواطر

بقلم الأستاذ صلاح الدين الأيوبي

ويكل إدارة البيع والرهن بوزارة التجارة والصناعة

تسمى الخواطر أحيانا أحلام اليقظة لأنها تشبه الأحلام من وجوه كثيرة ، أعينها أنهما ينمcan من مكان واحد هو العقل الباطن ، ويتجهان في التعبير أسلوبا واحدا ، هو أسلوب الفطرة التي تتمثل في ثقافة الإنسان البعيد ، إن سذاجة وإن وحشية ، ثم أنهما يؤديان وظيفة واحدة هي التفریح عن النفس ، وهذه الوظيفة هي التي نجعلها مدار البحث .

عند ما تقرأ كلمة " الخواطر " التي جاءت عنوانا لهذا الموضوع فانك تعرف شيئا . هو أني أعرض عليك معلومات عن موضوع الخواطر ، وهذه المعرفة تثير لديك عاطفة هي حب استطلاع هذه المعلومات ، وهذه العاطفة تبعث في نفسك رغبة الى قراءتها . فان أنت قرأتها فقد أشبعت رغبتك ، وشعرت بارتياح . ولكن هب أن عارضا حال دون اشباع هذه الرغبة . فأين هي تذهب وما مصيرها ؟ إنها تظل مكبوتة في العقل الباطن . وهي قوة كامنة ضعيفة كانت أو قوية .

وتقتضى ملائسات الحياة اليومية كبت طائفة من عواطفنا وكبت ما يتبعها من رغبات ، فنظل في العقل الباطن طاقة نفسية مضغوطة ، وهي دائبة الإلحاح على العقل الواعي في التماس غفلة منه تمكنها من الظهور ، والعقل الواعي دأب الإلحاح على هذه الطاقة النفسية يريد أن تظل مكبوتة ما دامت مقتضيات الحياة التي أوجبت كبتها قائمة .

هو تبادل القوة والمقاومة بين الطاقة النفسية المضغوطة الضاغطة من جهة ، والعقل الكابت المستهدف من جهة أخرى . لذلك كان لا بد لهذه الطاقة من صمامات تفریح شأنها في ذلك شأن المرجل المتأرجح ، وتعتبر الخواطر والأحلام صمامات الأمن والتفریح . وما دام الوعي ساهرا فالعراك دأب ، وهو صراع بين العقل الباطن والعقل الواعي يتخذ من نفوسنا ميدانا له كل يوم . ويمكن الآن أن نراجع وجهة نظرنا في الأخطاء والزلزلات التي كانت تبدو أنها هفوات بريئة . إذ يتضح أنها تعبير صريح عن نيات دفينه مكبوتة في العقل الباطن ، وأنها استجابة عواطف مكبوتة ورغبات مضغوطة ، قد غاقت العقل الواعي فبدت ، فحملت على أنها هفوة من العقل الواعي حين أنه برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب . هي لفة صريحة يبربها العقل الباطن عن مكنوناته ، فحين ارتقى درجا ، وتستر قدمای فلا يكون هذا التعثر من بنات الصدفة ، وإنما هو وليد رغبة جامحة مكبوتة في العقل

الباطن تدفعني إلى الاسراع في الصعود لسباع خبر سار مثلا ، فيدس هذا العقل درجة زائدة بين قدمي لم يعمل عقل الواعي حسابا لها فاتعثر . وهذا شأن زلة القلم أو زلة اللسان حين يجعلني التسرع أكتب أو حين يجعلني أقرأ كلمتي ” تسرع مكبوت ” هكذا ” تسربوت ” ، مسقطا بعض الحروف منهما كافي أثب على رءوس الكلمات وثبا .

وتفسر لنا هذه الحقيقة أشياء كثيرة : فهي تجعلنا أقدر على قراءة الوجوه ، والتفغل في أعماق الناس والوقوف على معان وأسرار غائرة في المحفوة والنظرة والإشارة والنبرة ، بل أنها تفسر لنا أحيانا بعض الحوادث التي كانت تبدو غامضة ، وكان يتم بجزئتها القضاء والقدر ، مثل سقوط خادم من نافذة أثناء عنايته بتنظيفها ، أو وقوع أحد المارة في طريق سيارة ، أو فقدان الذاكرة في وقت امتحان ، أو تلامم وتضارب أيام القضاء ، والغالب أن العقل الباطن كان مشحونا بالفكرة التي أدت إلى النتيجة فأوحى بذلك الشخص لنفسه بفكرة السقوط أو بفكرة الانتحار أو البلادة أو التلعثم .

ونتهى من ذلك إلى نتيجة هامة هي ضرورة العناية بالعواطف والرغبات التي نكتبها :

فحيث تكون مفيدة وخيرة فالشخص خير وطيب ، وحيث تكون خبيثة وشريرة ، فهو كذلك حقا .

وإذا تغلب العقل الواعي على العقل الباطن ، وتم له حجب الطاقة فإنما يطفو وإن غارت ما يدل عليها ، كأن يعبت الإنسان بقدمه أو بشيء بين أصابعه ويعتبر هذا العبت تماما من الصدمات التي وإن خففت من حدة الضغط لا تشبع نهم الرغبة .

وإذا تغلبت قوة العقل الباطن على قوة كبت العقل الواعي ، كثرت الخواطر لا مرتدية قناع الاخطاء والزلات أو العبت بالأشياء والعصبية في الأقوال أو الحركات ، وإنما صريحة سافرة ، خواطر سائبة هائمة جامحة ملحة تكاد تكون متواصلة حتى ليكاد يمتنع على العقل الواعي ان يباشر نشاطه ، فاذا بالإنسان مهموما ويصعب عليه العمل لأنه يتطلب نشاط العقل الواعي وهو مهتور فيجدل على أن يبذل جهودا ليست في مستوى طاقته ازاء تيار الخواطر الجارف فتبدو جهوده جبارة رغم أنها في الواقع عادية . وما ذلك إلا لأن العقل الباطن ليس على وفاق مع العقل الواعي . فاذا هيج الإنسان إلى النوم اخذ العقل الباطن يتفتق عن خيالاته المتدفقة فتسبب الارق وتمنع النوم . فاذا اتفق ان مس ملاك النوم ألقفون المسهدة فإنما لكي يتحور العقل الباطن من كل أثر من آثار رقابة العقل الواعي فتندفع الاحلام في عنف مروع يطير بالنوم ليعود هذا العقل الباطن فيستبد بالوعي لحساب الخواطر .

فاذا استفحلت قوة الطاقة نراه يكلم نفسه بصوت مسموع وأحيانا يتكلم أمام الناس حيث يجب السكوت لانه لا يعي بما حوله ولا يرى إلا خواطره وكأنها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وهذا هو الجنون الذي يصور لمن صدمه اشهار افلامه أنه مومر وولءه ويصور لمن صدمه الحاق الاهانة بكرامته أنه ملك ومتوج . الى ما يقاس على ذلك . ويلاحظ على هذه الحالة ملاحظتان :

الأولى — ان الجنوح الآلى الذى يبدو فى تعويض النقص المحسوس وهو الافلاس أو الالهانة يدل على أن الترقى طبيعة فى الانسان وسجيية . ويستتج من ذلك أنه طالما كان الإنسان منتقلا الى أرقى كان سعيدا فى حياته وهذا هو الأساس الذى يبنى عليه فن الحياة ويجب على كل فرد أن يعنى بنظام يكفل هذا التنقل باضطراب و يحاسب نفسه يوميا عليه .

الثانية — ان العقل الباطن فى تعويضه النقص المأموس يستعمل تلك الأساليب الفطرية فيبدو له أن الالهانة لا تمنحى إلا اذا أسبغ الصفة الملكية على الذات المهينة .

وقد يهتدى رغم ذلك إلى حلول موفقة للمشاكل القائمة ولذلك يحسن تتبع نغثات العقل الباطن ودراستها . ويعزو الروائى وإيم آرشر فضل وضع خطة مسرحية السابحة (الآلة الخضراء) الى ما كان يسجله يوميا من خواطره وأحلامه عملا بتوصية فرويد فى كتابه تفسير الأحلام .

ويحسن أن يراقب الانسان نفسه فلا يسمح بنشوب هذه المغالبة فى نفسه ، ويقضى على كل ما يهدد لها قبل أعمالها واستفحالها . فيجب عمله الى نفسه لأن الرجل المترنن هو الذى يخال على المسألة ، فيجعلها أساس العلاقة بين عقليه . فيقبل على عمله كما يقبل الطفل على لعبته . فاذا تعذر ذلك فليعرف ماذا تريد نفسه ، أى عقله الباطن فيسلم له بعض نشاطه برهة معينة من كل يوم . ذلك ما لم يكن الأمر مما لا بد من حدوده فيحسن سرعة القطم فى الموضوع ولو بالخسارة لأنها بالغة ما بلغت ، دون التلف النفسى الذى يتخلف عن النزاع بين العقليين .

يقول جيريمى تايلور عند ما نزع ملكية أمواله وأصبح هو وعائلته بغير ماوى بين عشية وضحاها : ” الحمد لله على الذى تبقى لى بعد ضياع ثروتى . فقد تركوا لى الشمس والقمر وزوجتى المحبة وأصدقائى المخلصين يشعلونى بعطفهم وعضائهم . لم يتناولوا شعورى الخير ولا روحى الطروبة ولم يجرمونى العناية الالهية ولا ما وعدنى الله به ولا أمل فى رحمته وهانذا أنام وآكل وأقرأ وأمكر . ومن يملك كل هذه النعم والمسرات ولا ينشرح صدره على وورتها وجهه إياها لأنه يفضل أن يقعد على ما يعتبر نسبيا حفنة من الأحران لهُو حقا فقير .

وليس الفرد وحده هو ضحية هذا النزاع العقلى وإنما يشترك معه المجتمع فى الضرر بنصيب . وليس مرجع الضرر الحالات التى تستوجب الحجز فى مستشفيات الأمراض العقلية فقط وإنما مرجعه أيضا الحالات الخفيفة التى تستر عن الملاحظة لبساطتها . وهى كثيرة إذا قيست بعدد الحالات البارزة . ولذلك فإن الضرر الذى يلحق الإنتاج القومى من انتشارها ومن عدم ملاحظتها خطير .

وفضلا عن الضرر الذي يمثل في هبوط مستوى الانتاج في مختلف النواحي فان بعض الظواهر الاجتماعية مثل ازدياد حالات الطلاق أو حالات الطفولة المشردة يرجع الى الانحرافات الناشئة من هذا النزاع كما يرجع اليه بعض حالات الاجرام. وكثيرا ما كان يمكن تداومها بالعلاج لو أنها كانت قد اكتشفت مبكرا . فيوفر علاجها العناء والاضرار ونفقات التحقيقات ودور الاصلاح . ولذلك فان الوقاية العقلية لا تقل أهمية عن الوقاية الجسمية . وهذا ما وصلت اليه اللجنة القومية للصحة العقلية التي أسست في نيويورك سنة ١٩٠٩ وما زالت تصدر المجلات وتنشر العيادات النفسية حتى امتدت الحركة الى أوروبا كما ازداد انتشارها في أمريكا وأصبح بالولايات المتحدة في الوقت الحاضر أكثر من ستمائة عيادة نفسية لتوجيه ووقاية الأطفال والشبان .

ومن الحلول الموقفة في ازالة هذا النزاع اجابة رغبات العقل الباطن بشكل تقفه ملائمت الحياة وذلك بادخال بعض تعريف على الرغبات المكبوتة . وهذا الحل هو ما يسمى التسامى بالمعطفة أو السمو بها . فالمعطفة الجنسية مثلا تتضمن حب الجمال وحب الثبات والأمانة والتضحية والتجمل والترقي ويمكن أن تحرر المعطفة الجنسية من قيود الكبت بصرفها الى فن من الفنون الجميلة كاقامة بناء جميل فانه عمل يحتاج الى حب الجمال وحب الثبات والأمانة والتضحية والتجمل والترقي وهي نفس العناصر الداخلة في تلك المعطفة . وهكذا تصبح العواطف المكبوتة التي تهدد بالجنون سببا للعبرة والترقي .

وعلى ضوء ما تقدم ، يمكن تاويل الولع بتربية الكلاب عند بعض الناس بأنه اشباع لأبوة أو أمومة جائعة ، ولكنه ليس تساميا كما لو اتخذ شكل العناية بالأيتام .

ويمكن كذلك تفسير ارتباط الأدب بالموضوعات الغرامية فهو تسام بالمعطفة الجنسية.

ويتضح أن من المراهقة ، هو أنسب أوان للتسامى بالكفائيات ، طالما أن تأخر

الزواج مع حسن التوجيه ، يأتي بأجل النتائج .

وقد أمكن استغلال تداعي الخواطر في كشف الجرائم بطريقة التحليل النفسى .

ذلك بعض ما نعرفه من دراسة الخواطر، وهي ذات مغزى وذات خطر، وفي ذلك يقول

الأستاذ فلوجل في مؤلفه (علم النفس في مائة عام من ١٨٣٣ - ١٩٣٣) إن المعلومات التي تتيح لنا النهوض بالكفائيات الانسانية وحسن استعمالها على أساس علمى رصين لانهتدى

ليها إلا بالبحث في العقل الباطن ما

صلاح الدين الأيوبي

لباس في القانون وفي الفلسفة والاجتماع